بيسان وآثارها

﴿ جغرافيتها ﴾ — بيسان مدينة واقعة في منخفضات سهل إزدراليون أو مرج ابن عامر Esdraelon يسكنها ١٥ الف نسمة معظمهم إسلام وهي قصبة قضاء يعرف باسمها الآن ، قائمة عند الكيلو التاسع والخمسين من خط حيفا — درعا ، في الجنوب الشرقي من المرج المذكور وسطحها منخفض ١٣٠ متراً عن سطح البحر . ولا يزورها احد منا الآن إلاَّ ويحمل معهُ عند رجوعه منها ذكرى الحر الشديد فيها والبعوض المنتشر فوق مستنقعاتها وهذا رغماً عن الاعمال الجليلة التي قامت بها الحكومة الحالية لتخفيف وطأة الملاريا فيها . غير انهُ لا بدَّ لهُ وخصوصاً إذا ما رجع إلى تاريخها الحافل بالحوادث التاريخية الاَّ ان يقف متحيراً عند ما يعرف انهُ كان لها شأن خطير في تاريخ فلسطين من قديم الزمان . وبالرغم من هذا كله لم تجرؤ الجمعيات العلمية على طلب رخصة للتنقيب عن آثارها إلاَّ بعد أن إحتلَّ الانكليز هذه البلاد لانها كانت ملكاً خاصًّا للسلطان عبد الحميد

﴿ الحفريات وبيسان ﴾ وكان اول من نال امتياز التنقيب بعثة متحف جامعة بنسلفانيا بفلادلفيا سنة ١٩٢١ وكان من العبث ان تقوم البعثة المذكورة بالحفر والتنقيب عن كل آثار العصرين الروماني والبيزنطي في المدينة لانهُ عمل شاق جدًّا وانما حفرت التل المسمى بتل الحصن Tel El Husn وهو تل يرتفع عن سطح الارض (١) ٢٥٠ قدماً تقريباً وكذلك المقبرة التي تمتدُّ على الشاطىء الشمالي من نهر جالود Jalud . والاراضي التي تقع حول بيسان خصبة جدًّا حتى أنها كانت تنتج كتاناً اشتهر في العالم القديم

دلَّت الحفريات الحديثة أن المدينة كانت قائمة من قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وقد أسفر البحث عن وجود كنيستين واربعة معابد اثنان منها يرجعان الى العهد القديم . أولها (١) بيت عشتاروت (٢) The House of Ashtaroth وثانيها (٢) معبد دجون (٣) The Temple of Dagon وعثرت البعثة كذلك على أحجار نقشت عليها كتابات تختص ببعض ملوك مصر الاقدمين سوف أشير اليهم فيما يأتي

﴿ أسماء بيسان ﴾ واسم المدينة في العبرانية القديمة «بث شان» Bethshan ومعناه «بيت

(١) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية . الجزء الثالث وجه ٣٣٣

(٢) راجع صموئيل الاول الاصحاح ٣١ العدد ١٠ (٣) راجع الاخبار ١ الاصحاح ١٠ العدد ١٠

السلام او الهدوء » ولكن لما احتلها اليونان غيّروا اسمها هذا إلى Scythopolis اي « بيت السيكيثيين »[١] Scythians ولكنها لا تزال تعرف باسمها القديم ولا ندري ما الباعث على ذلك. ويقال انها كانت تدعى مرةً ما باسم[٢] Mysa وهو الموضع الذي وضع فيه الاله باخوس Bacchus وارضع من عرائس البحر Nymphs ولقد ظهر هذا الاسم على بعض النقود التي وجدت في المدينة

﴿ نبذة عن تاريخها ﴾ ذُكر اسمها بين اسماء المدن التي احتلها تحتمس الثالث[٣] عند ما احتلّ سهل ابن عامر سنة ١٤٧٩ ق.م وكانت ايضاً في قبضة المصريين على ايام ستي الاول سنة ١٣١٤ ق.م. وبقيت على هذه الحالة الى أيام رعمسيس الثالث سنة ١١٩٨ ق.م. وقد وُجد اسمها ايضاً مذكوراً على احد دروج البردي Papyrus Anastasi على أيام رعمسيس الثاني. واستولى الاسرائيليون على المدينة في أيام الملك داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وكان من نتيجة موقعة جلبوع[٤] Gilboa الشهورة في التوراة أن علقت جثتا الملك شاول Saul وولده بعد هزيمتهما وقتلهما على سور المدينة. ثم احتلها بعد ذلك المصريون على ايام الملك Sheshonk سنة ٩٢٦ ق.م وبقيت من ذلك الوقت في ايدي المصريين إلى أن افتتحها الاشوريون في القرن السابع قبل الميلاد

وفي المدة الواقعة فيما بين سنة ٣٠١ ق.م — سنة ١٩٨ ق.م دخلت المدينة في حكم البطالسة ولما جاء الرومان الى فلسطين احتلوا المدينة سنة ٦٥ ق.م على أيام بومبي Pompey ومن ثمّ اصبحت اشهر مدينة بين المدن العشرة الرومانية في الشرق الادنى المعروفة بـ Decapolis وأخذت تنمو وتتقدم فكثرت فيها العمارات والبنايات الكبيرة كالملاعب والملاهي واصبحت تفوق مدينة القدس تجارة ونفوذاً وسعةً وسكاناً. ولما جاء المسلمون فلسطين فتحوها سنة ٦٣٦ ق.م. وفتحها صلاح الدين ايضاً سنة ١١٨٧ ميلادية مع عفربال Arrabalo او Fourbelet واغتصبها من ايدي الصليبيين. ويقال انهُ لما حسر البيزنطيون موقعة اليرموك المشهورة تراجعوا الى ما وراء نهر الاردن وذلك بعد ان حصنوا بيسان حتى انهُ لما تبعهم العرب[٥] وجّهوا عليهم ماء العيون التي في المدينة ولكن العرب لم يعبأوا بذلك فهجموا عليهم وكان من نتيجة ذلك أن انهزم البيزنطيون شرّ هزيمة وتعرف هذه الموقعة بموقعة النحل[٦] Fahl وهو الاسم العربي لمدينة Pella القديمة وأصبح يُعرف هذا اليوم فيما

(١) وهم قوم نزحوا من الشمال الى فلسطين حوالي سنة ٦٠٠ ق.م (٢) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في كتاب The Historical Geography of the Holy Land by. G. A. Smith وجه ٣٥٧—٣٦٣ (٣) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية

(٤) راجع صموئيل الاول الاصحاح ٣١ العدد ١٢

(٥) راجع النقل المكتوب عن بيسان في مجلة The Museum Journal Dec. 1928 الصادرة في فيلادلفيا بأميركا (٦) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في The Hist. Geog. Holy Land ايضاً

بعد في التاريخ الاسلامي « بيوم بيسان »

﴿ بيسان ومكانتها الأثرية ﴾ دلّت الحفريات الحديثة أن تاريخ التل المذكور أي تل الحصن يرجع إلى ما قبل ٣٠٠٠ سنة ق. م. وقد توصل علماء الآثار إلى معرفة هذا من الحفر في بئر بجانب التل والعثور على طبقات بناء مختلفة يرجع تاريخ كل واحدة منها إلى عصر معروف ، ويقع ضمنه معبد المدينة القديم والمدينة الكنعانية القديمة « The Canaanite City » والقلعة المصرية وهي قلعة مبنية من الآجر فيها غرف صغيرة وممرات طويلة . أما حجم اللبنات المبنية منها فتبلغ[1] ٢١ × ١٤ × ٦ بوصات . ووجد في هذه القلعة لوحات من الحجارة خطّت عليها نقوش تختص بكل من سيتي الأول ورعمسيس الثاني وتغتال رعمسيس الثالث وكل هذه الاحجار[2] مقطوعة من نوع من الرخام . أمّا النقش الحجري فللملك سيتي الأول

١ — اللوحة الاولى : دوّنت عليها أسماء القبائل المتعددة التي خضعت لهُ في غزواته عند دخوله فلسطين والكتابة على هذا الحجر صعبة القراءة جدًّا وترتيبها غير معيَّن وهي تختلف كثيراً عن بقية النقوش الخطيّة التي أقامها هذا الملك ولا يمكننا بواسطتها أن نعيّن السنة التي غزا فيها مدينة بيسان ومتى أقام الحجر المذكور فيها وعلى الإجمال فهذا النقش يُعطينا شرحاً لابأس بهِ عن غزو سيتي لبعض من الشعوب الآسيوية كشعب Rtnw « رتنيو » وهذا هو الاسم المصري للشعب الذي كان يسكن فلسطين في ذلك الوقت

أما في ما يرتبط بالعساكر التي استخدمها هذا الملك في غزوة فلسطين فالحجر يبيّن أنها كانت « مستأجرة معظمها من الجزائر الإيجيّة «Aegean Islands» ومن غرب الأناضول »

٢ — وهنالك نقشٌ خطيٌّ آخر (Stele No 2) وجدته البعثة الآنف ذكرها وعليهِ منقوش صورة Seti I أيضاً عند ما كان شابًّا متحليًّا بالشارة الملكية المصرية « وهي رأس الحيّة » يُقدّم قرباناً إلى الإله هورس « Horus » وعلى هذا الحجر مكتوب قصة تشير الى أن أهالي بيسان وكذلك أهالي رهوب Rehob قد طلبوا النجدة من الملك المُشار اليه لاعانتهم ضد أهالي Hanmath[3] الحمة (وهي قرية واقعة على نهر اليرموك فيها ينابيع حارّة . (راجع الخريطة) وأهالي قرية Pella (وهي قرية أيضاً تقع شرقي بيسان من الجهة الثانية للأردن) ، وكيف أنهُ عند ما وصل مجدّو Megiddo[4] كان قد أوفد مجدة للمستنجدين

(١) راجع مقال الدكتور Fisher عن بيسان في مجلة متحف جامعة بنسلفانيا » عدد ديسمبر ١٩٢٣

(٢) ان الشرح المعطى لهذه الاحجار في هذا المقال مأخوذ بعضه من مقال خصوصي عنها للدكتور فنكلستين أحد اساتذة جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins

(٣) قرية خربة فيها بعض من الآثار الرومانية واقعة على خط سيماستورها وفيها كنيس يهودي قام بحفره حوله في الصيف الماضي بعثة ارسلت من قبل الجامعة العبرية بالقدس . ويزورها الآن كثيرون من الذين يطلبون الاستشفاء للاستحمام في حماماتها الساخنة . (٤) بلدة قديمة واقعة في سهل مرج ابن عامر كانت ذات شأن كبير في تاريخ فلسطين ويقوم بالحفر فيها الآن بعثة مرسلة من قبل جامعة شيكاغو [المقتطف]

في كتيبتين من كتائب جيشه أحداهما Ra وهذه ذهبت لاحتلال بيسان والثانية Amen وهذه ذهبت لإخضاع أهالي الحمة Hammath وبعد ذكر وقائع أخرى تنتهي الكتابة المنقوشة بذكر انتصار ستي الاول (Seti I)

وهذا الحجر هو أهم الاحجار التي وُجدت في بيسان من الجهة التاريخية لأنهُ يشرح لنا بعض الحوادث المدوّنة على جدران معبد الكرنك في مصر . ومعرفتنا لتاريخ فلسطين في المدة التي تقع فيما بين عصر تل العمارنة وعصر دخول الإسرائيليين إليها يتوقف بعضاً ما على ما هو مكتوب على هذا الحجر . وأول شيء يهم الإنسان في قراءة هذه المخطوطة الحجرية هو تاريخها المضبوط «السنة الأول ، الشهر الثالث من الفصل الثالث، اليوم العاشر» وهذا يعني أن سيتي الأول كان قد غزا فلسطين في هذا التاريخ ابتداء من تولّيه عرش الفراعنة

وهذا الحجر يدلنا على أن الحجر الأول للملك نفسه لم ينصب عند ما غزا فلسطين أوّل مرّة بل كان قد نُصب عند دخوله إليها في المرّة الثانية

أما اسم بيسان فنجده مذكوراً مرتين عليهِ وبهجئة اسمها باللغة الهيروغليفيّة تدلّ أنها نفس المدينة المذكورة في رسائل تل العمارنة « Tel El Amarna letters »

٣ — اللوحة الثالثة (Stele No 3): أما حجر رعمسيس الثاني فيقع بجانب الحجرين الأولين لسيتي الأول وكتابتهُ تُقرأ بسهولة وتتألف من ٢٤ سطراً كلها تنطق بعظمة الملك الموصوف «كالأسد بين النعاج» و «كالنسر بين الطيور» و «كالملك الذي يهرب من أمامه الأعداء كتطاير الريش في الريح الشديدة» . وهذا الحجر هو أكبر الثلاثة حجماً وتاريخه « السنة التاسعة ، الشهر الرابع من الفصل الثاني ، اليوم الأول» . وقصة ذلك أنه في السنة الثامنة من حكم رعمسيس الثاني كانت قد ثارت عليه بعض القبائل الشمالية وأغلبها من الحثيين فجاء وأخضعها بجيوشه وفتح بيسان وأقام في قلعتها المصرية هذا الأثر التاريخي بعد سنة تقريباً

ومكانة هذا النقش الخطي من ناحية التاريخ تقع في السطر التاسع منه حيث يقول أن شعباً آسيوياً[1] كان قد استخدمهُ الملك في بناء مدينة Ramses في دلتا النيل Delta وهذه هي البلدة المذكورة في العهد القديم من التوراة في سفر الخروج الاصحاح الأول العدد ١١ . ومن هنا يمكننا أن نرى أن اليهود هم الذين كانوا قد استخدمهم رعمسيس الثاني في بناء بلده

ويذكر أيضاً على الحجر أن الملك المذكور كان قد أعدّ مقبرة جميلة لجنوده في بيسان ولقد دلّت نتائج الحفر في هذه المقبرة على أن الأشياء التي وُجدت فيها يرجع تاريخها الى ٢٠٠٠ سنة ق . م . وأنها مصرية الصبغة بكل مظاهرها كوجود زهرة اللوتس Lotus والحيّة الملكية المصرية ويرجّح ان العساكر التي دفنت في هذه المقبرة كانت مستأجرة في الجيش المصري

(١) وهذا دليل قاطع يدلنا على ان الاسر الاسرائيلية في مصر كانت على أيام هذا الملك يشير الى ذلك ماهو مكتوب في الاصحاح الاول من سفر الخروج العدد ١١ بقوله «فبنوا للفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس»

وبجانب هذا الحجر وجد تمثال رعمسيس نفسه مكسوراً ويظهر على كتفيه شعار ملكي مصري آخر وهو نظرشوش الفرعوني Cartouche

ويقول الدكتور Albright [1] ان هذه الاحجار الثلاثة هي اهم ما وُجد من الآثار القديمة في فلسطين وسوريا لانها تدلنا على تاريخ هذه البلاد بوجهة اجلية

وتدل البيوت المنتشرة حول القلعة المختصة بالسكيثيين Scythians الآنف ذكرهم انهم لم يكونوا على شيء عظيم من الحضارة لان هذه الآثار تنطق بذلك . ولقد بقيت بيسان من ايام هؤلاء القوم على حالة مضعضعة الى ان احتلها اليونان فتغيرت من مدينة حرب الى مدينة تجارة وسلام واصبحت تفوق بتاريخها من هذا الوقت مجدها القديم وجبروتها العظيم ودخلت بذلك عهد نهضة جديدة . واول أثر يدل على هذه النهضة في المدينة هو وجود معبد جميل في اعلى نقطة فيها عثر بجانبه على قطعتين من الرخام مكتوب عليها نقوش خطية مع ذكر اسم دمتيريوس Demetrius وبعض من النقود الفضية مكتوب عليها Ptolemy Soter I الملقب بـ Polyorcetes ملك مكدونيا من سنة ٢٩٤ — سنة ٢٨٧ ق . م . ولسبب ما لا نعرفه بقي بناء هذا المعبد ناقصاً الى ايام الرومان الذين اكملوه وقاموا بترميمه فيما بعد واعمدته ذات قواعد اتيكية Attic ورؤوس كورنثية وتدل النقوش واكاليل الزهر المنقوشة على جدرانه انهُ كان قد كرّس الى الاله باخوس [2] Bacchus ولما كان موقع بيسان الجغرافي ممتازاً جعلها الرومان قاعدة مدنهم العشرة Decapolis وأصبحت مركزاً تجاريًّا كبيراً تمر بها القوافل والتجار في طريقهم الى شرقي الاردن

وكان يعيش بجانب العنصرين الروماني واليوناني في المدينة فريق من اليهود كان لهم شأن خطير في تاريخها ففي سنة ٦٥ ق . م . انحازوا الى جانب اخوانهم الوثنيين من سكان المدينة ضد بعض الثوار الذين قاموا في وجه الحكم الروماني في ذلك العصر ولكن هذا الجيل لم ينفعهم لان الوثنيين غلبوهم بعد هذه الحادثة بقليل وذبحوا منهم ما يقارب (١٣٠٠٠) نفس . ولما ظهرت النصرانية اصبحت بيسان مركزاً مسيحيًّا كبيراً وصار يسكنها مطران يترأس عدة كنائس فيها واول كنيسة بنيت فيها كانت في القرن الرابع للميلاد وكان موقعها على رابية وفي جوار هذه الكنيسة من الجهة الشمالية وُجد قبر سانت بأروفيلس St. Patrophilus اول اسقف مسيحي للمدينة . وفي ايام الاضطرابات التي قامت ضد المسيحيين سنة ٣٦١ ميلادية نُهبت الكنيسة المذكورة وحُرقت ولكن لما استتبَّ الامر للمسيحيين ثانيةً بنوها بعد ان غيروا في هندستها الشيء الكثير . ولما دخل المسلمون فلسطين سنة

(١) ويؤيد قول الدكتور Albright كثيرون علماء الآثار منهم الدكتور G. S. Fisher وهو الذي وجدها في بيسان سنة ١٩٢١ (٢) وهو اله الخمرة عند اليونان

٦٣٧ ب. م. حولوها الى جامع فأضافوا اليها بعضاً من النقوش الخطية الكوفية ولكنهم لم يغيروا شيئاً من اصل البناء . وتدل النقوش الكوفية التي وجدت في اماكن مختلفة ان هذا الجامع كان قد سقط وخرب بواسطة الزلازل إما في سنة ٦٥٨ ب.م. او في سنة ٧١٣ ب م. ولم تقم له قائمة فيما بعد لأن بعضاً من البيوت العربية للسكن امتدت اليه وتعرف هذا من كتابة كوفية منقوشة على عامود وجد حديثاً والتي كتبها رجل عربي زار المدينة في سنة ٧٨٤ ب.م. والراجح ان بيسان كانت معروفة للسيد المسيح[1] لان على مقربة منها كانت تقع بيت عبرة وهو الموضع الذي تعشد فيه وكان لابدّ له ولتلاميذه ايضاً من اجتيازها عند ما كانوا يبشرون بدينهم الجديد في منطقة الجليل

ولم تتوطد دعائم النصرانية في هذه المدينة الاّ في اواخر القرن الثاني للميلاد فاضطهد مسيحيوها على ايام الامبراطور ديوقليطيانوس (٢٤٥ — ٣١٣ ب. م.) وتضعضعت احوالهم ولكن عددهم اخذ يزداد بعد هذا وصار لهم كلمة مسموعة في شؤون الكنيسة وكان لهم ممثل في المجمع الكنائسي الذي عقد في نيقية Nicaea[2] سنة ٣٢٥ م. ولقد اصبحت فيما بعد مركزاً عظيماً للرهبنة المسيحية اخرجت رجالاً كانوا اصحاب سطوة في تاريخ الكنيسة الشرقية مثل القديس باسيليوس St. Basil والقديس كيرلّوس St. Cyril

﴿ سبب انحطاط بيسان الآن ﴾ : — قلنا آنفاً انهُ في اثناء حصار العرب للمدينة سنة ٦٣٧ ميلادية كان قد اطلق الرومانيون عليهم اقنية الماء التي كانت تقع في غرب المدينة فأحدث ذلك مستنقعات حول المدينة ولما دخلها العرب لم يوجهوا عنايةً ما الى تجفيف هذه المستنقعات ومن ثمّ أصبحت للمدينة في خطر هو أشد وأعظم فتكاً من الجيوش الجرارة وذلك الخطر هو البعوض ناقل طفيلي الملاريا

وعند ما احتلّ الصليبيون هذه المدينة ، عرفوا ما لها من الشأن الخطير فبنوا فيها ثكنات عسكرية وكان في هذه الثكنات ترن غير أنه كان من نتيجة الملاريا الملعونة أن تركَ هؤلاء المحل وذهبوا الى محل آخر على بضعة أميال من بيسان شمالاً سموهُ فيما بعد Belvoir ولكنهم بالرغم من هذا كانوا قد تركوا شرذمة من عساكرهم في المدينة لم تقوَ فيما بعد على صدّ هجمات صلاح الدين سنة ١١٨٧ ميلادية

ومن ذلك الوقت اختفت بيسان بتاريخها العظيم من مرسح التاريخ العام تولا ظهورها بين آونة واخرى كشبح فقط في تمثيل بعض الادوار الصغيرة في تاريخ فلسطين على هذا المرسح

داود . ت . فيشر

---

(١) راجع مقال آخر مكتوب في مجلة متحف جامعة بنسلفانيا عن بيسان The Museum Journal XV—XVI (٢) راجع المقال نفسه في The Museum Journal XV—XVI عن بيسان

اللحن الضائع

لمحسن كامل الصيرفي

يا أغاني الربيع ما أنا إلاّ مقطعٌ من قصيدةٍ ضاعَ لحنهْ
لم تلدْ لي الايامُ من يتولّى بعثَ لحني ، وكيف يبرعُ شأنهْ؟
أوَ بين الصخور يكتمل الصو ت؟! محالٌ هذا وكنتُ اظنّهْ...
ادركتْ ذلك الطبيعةُ في الكو ن، فأغضتْ عنهُ،فأُجّل حيرتهْ
وتناستهُ ، والذي تتناسى في شروق الحياة يوشك بيّنهْ
من ذبول الآمالِ، من غُمرِ اليأ سِ،وطيف الآلامِ يشردُ ذهنهْ
من ظلام الطريق ،من شبح الوهـ ـمِ،وفقدِ الوجدان يُطبق جفنهْ
يا اغاني الربيع . . . عندكِ وزنٌ للنشيد الذي تُنوسيَ وزنهْ ؟
كان يصطال سماعك بالأمـ ـسِ ليصحو من رقدةِ الموت فنّهْ
فإذا العودُ لا يردّدُ صوتاً وإذا القلب ليس يُسمع أنّهْ
والربيعُ الجميلُ في وحشة الاطـ ـلال ، ذاوٍ ، فليس يجملُ لونهْ
مُوحشٌ في الصباح ، في وَضح الشـ ـمسِ ، وليل الآلام حين يجنّهْ